توفيق زياد شاعر الواقيعة المقاتلة

الدكتور فيصل دراج

وادمي وجه مغتصبي
بشعـــر كالسكاكـــين
توفيق زياد

عندما ندرس عملا ادبيا فاننا لا ندرسه في الفراغ او المطلق بل في سياقه التاريخي وفي الشرط الذي انتجه ، فليس هناك مثالا كاملا نقارن به العمل الفني ونحكم بالتالي على قيمته الفنية والاجتماعية ، لذلك لا يعالج الانتاج الفني الا من خلال زمانه ، ومن خلال الغلاف الاجتماعي — التاريخي الذي اعطاه جذوره . فلا يمكن الانطلاق عنـد معالجة العمل الادبي من شروط مسبقة ومن معايير « مطلقة » معدة مسبقا ، فنقطـة الانطلاق والنهاية هو العمل الادبي المرتبط بزمانه ومكانه ، اي العمل الادبي كما هو دون زيادة او نقصان .

انطلاقا من هذا سنضع شعر توفيق على مائدة موضوعية ، مائدة قضيته ، لن نبحث في بنيانه عن امور غريبة عنه ، بل سنحاول ان نقرأ ما هو موجود فعلا في اركان وزوايا هذا القصر الشعري ، وعندما سنركز على منفعة هذا الشعر وتحريضيته لن يكون ذلك تعسفيا او مجرد موقف شخصي ، بل اقرار موضوعي لما يوجد فعلا في اركان ذلك الشعـــر .

الاجتماعي والجمالي في الانتـــاج الادبـــي :

لا تنبع القيمة الجمالية للعمل الشعري من الذات الشاعرة او من اغوار شاعـــر استوى على عرشه اللغوي منزها عن مكانه وزمانه ، فعالم الشاعر ليس وادي ابليس او كهف افلاطون بل عالمه المعاش ، عالم مجتمعه بكل تناقضاته ، ولا تنبع القيمـة الجمالية الا من رصدها وتمثلها لحركة المجتمع وعكسها في نمط لغوي خاص لهذه الحركة، فليست القيمة الجمالية معطاة مسبقا في وعي الفنان او الاديب ، فهي تتشكل تاريخيا في وعي الفنـان لا كنزوة فردية بل كقيمة محددة موضوعيا بالوجود المادي للمجتمع . لذلك تتضمن كل قيمة جمالية عنصرين متجاورين : الفني والاجتماعي ، ولا يتواجدان مستقلان او منفصلان بل يتواجدان في وحدة او بشكل ادق يشكلان وحدة متماسكة هي في المستوى الاخير القيمة الجمالية . من هنا فان القيمة الجمالية تتضمن باستمرار بعدين يحددان اثرها على المجتمع والتاريخ ، ويرتبط البعد الاول في اثرها المباشر ، اي لحظة ظهور العمل الفني واثره على مجتمعه في زمانه (اثر آني) ، اما البعد الثاني فيأتي من الاثر الدائم والمستمر للعمل الفني كانعكاس صحيح لزمانه (اثر كوني) . اما ما يعطي العمل الفني قيمته الموضوعية فهو وحدة الاثرين بحيث يكون فيهما الثاني مسيطرا . ان الاثر الاول يعطي للشعر قيمة في وقته لكنه يتلاشى بعد ذلك ، في حين يعطي الاثر الثانـــي للشعر ديمومة لا تنغلق وراء زمان او مكان ، **ديمومة مفتوحة في التاريخ** .